أتواصل مع الآخر بالكلمة الطيبة والقصيدة

هيلانة عطا الله: لست منحازة إلى نمط شعري معين

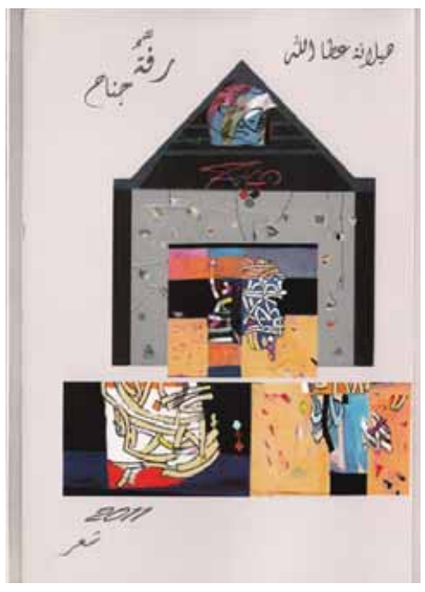

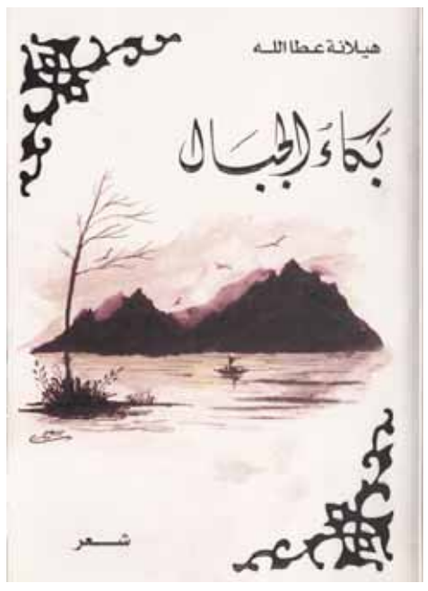

| رامه الشويكي

عشقها لعالم الكتابة الشعرية، واستنباط دواخلها الوثابة بالكلمات، جعلاها من الأصوات المهمة في مدرسة الحداثة في الشعر السوري المعاصر. للحديث عن مسيرتها الشعرية، والموضوعات التي تتناولها في كتاباتها كان لنا معها هذا الحوار:

• بأي عمر لمست موهبتك الشعرية؟ وكيف عملت على تطويرها؟

احتضن حي باب توما الدمشقي العريق طفولتي وساهم في تكويني الفكري والروحي، فمازلت أذكر مشاركتي الأولى في احتفالية مدرسية عندما كنت في الصف السادس الابتدائي، ولم أكن حينها أعرف شيئاً عن أصول الكتابة الشعرية، ولكن حظيت بتشجيع كبير من أسرتي ومعلماتي ما حفزني على تكرار المحاولة، وفي سني المراهقة رحت أستبطن دواخلي الوثابة إلى الحياة والحب، حتى تمكنت من نظم مجموعة من القصائد عندما كنت في الصف الأول الثانوي، واستضافني التلفزيون العربي السوري في أحد برامجه كموهبة شابة وتم تكريمي فيه، وفي إحدى المرات نشر الصحفي المرحوم «جان أليكسان» مقالاً في جريدة البعث انتقد فيه عدم تعليم فئة الشباب أصول الكتابة وجعل مني مثالاً لأنني كتبت قصيدة نثرية، فشكلت هذه الحادثة حافزاً آخر جعلني أقرأ دواوين الشعر العربي فقرأت لسليمان العيسى، بدوي الجبل، نزار قباني، هند هارون، كوليت خوري، غادة السمان، ورحت أقرأ نتاجات غربية مترجمة لكافكا ورامبو ولوركا، وأهتم بدراسة البحور الخليلية، وعندما حققت أمنيتي بدراسة الأدب العربي في جامعة دمشق أسرني شعر المهجر، وشعر العصر العباسي وكنت حينها متزوجة وعندي طفلان، وهذه المسؤوليات العائلية نقلتني إلى حالة أكثر نضجاً أثرت في مسيرتي الشعرية فتلمست طريقي الخاص بي في دنيا الشعر.

• ما دوافعك لكتابة الشعر؟

تعتمل معطيات الحياة في خوابي روحي فتتعتق خمورها وتنضج ثمارها حتى تصل إلى حالة تشبه الغيمة الحبلى التي ليس لها سوى الهطل، وأشعر في لحظات التجلي أنني بحاجة ماسة إلى الكتابة، فالدافع لكتابة الشعر عندي له وجوه عديدة يتجلى حيناً في الظروف العصيبة التي مررت بها فأشعر بحاجة لتفريغ شحنة الأسى مع المداد، وحيناً يتجلى بالعنفوان الذي يجتاحني إذا حقق وطني انتصاراً أو الأسى الذي يقلقني إذا ألمت به محنة، وحيناً يتجلى بمواكبتي لولدي الحبيبين، ورابعاً يتجلى حين أفقد عزيزاً يخطفه الغياب، فأراني أجد في القصيدة فضاءً تحلق في أمدائه روحي، وتعود وقد شحنت بطاقة إيجابية تشد من أزري، وفي الوقت نفسه أخرج القصيدة من عالم الذات لأعممها كتجربة تخص الإنسان ككل، أخرج من ذاتي وأتواصل مع الآخر بأرقى وسائل التواصل بالكلمة الطيبة والقصيدة.

• ما عدد مؤلفاتك الشعرية؟ وما موضوعات كل منها؟

لدي حتى الآن خمس مجموعات شعرية منشورة واثنتان قيد الطباعة إضافة إلى مخطوط كبير أحتفظ به لنفسي، ولدي مئات من الدراسات النقدية لشعراء ورواد سوريين وعرب منشورة في الدوريات المحلية والعربية وخاصةً دوريات اتحاد الكتاب العرب، كما لدي مقدمات لمجموعات شعرية لبعض الشعراء الشباب، وشاركت في ديوان الشباب إلى جانب كوكبة من الشعراء العرب الصادر عن المؤتمر العام للأحزاب العربية عام ٢٠١٠، وفي كتاب بعنوان «إيران كما شاهدناها» شاركت بمقال إلى جانب كوكبة من الباحثين والدبلوماسيين والأدباء وهو صادر عن المستشارية الثقافية للجمهورية الإسلامية الإيرانية بالتعاون مع اتحاد الكتاب العرب في «سورية» عام ٢٠١٩، وهنا أود أن أشير إلى أن المنجز الشعري لأي شاعر لا يقدر بعدد المنشورات فقد تغني قصيدة واحدة عن عشرات الدواوين.

• ما مكانة الوطن، المرأة، الشهيد، في شعرك؟

يشكل لي الوطن عالماً أتماهى فيه فهو الأم والأمة والبيت الكبير، وعندما أصف البيت فكأنما أصف نفسي، وعندما نتفاعل مع أفراد هذا البيت نؤدي فعلاً حياتياً حيوياً، وإذا أصيب ركن منه بسوء نجهد بترميمه، هكذا كان الوطن في قصيدتي، وكنت أخاطبه أحياناً كمعشوق ينقلني لعالم جميل أتخيله عزيزاً حراً كريماً، وهذا لا ينفصل عن قيمة الشهادة التي حفلت بها قصائدي وخاصة خلال الحرب الإرهابية فكانت صورة الشهيد في شعري ناصعةً مفعمة بالأمل والتحدي، لأن الشهداء بدمائهم يرسمون خريطة النصر، فكم كنت أتمنى لو لم يتعرض الوطن لهذه المحنة القذرة، ولم نضحِ بهذا الكم الكبير من شبابنا الذين من المفترض أن يساهموا في نهضته، أما المرأة فهي أنا بكل انتصاراتها وانكساراتها، هي أنا الفتاة الطموحة المتوثبة، وهي أنا الأم المعطاءة المضحية، وهي أنا التي تعطي للأحباء وللقراء خلاصة تجربتها في الحياة، وهي أنا المرأة العاملة التي تعمل وتبني ولها دورها الفعال في الحياة.

• ما الرسالة التي تحاولين تقديمها في كتاباتك؟

للأدب عموماً وللشعر خصوصاً من شجرته رسالة مهمة في الحياة، وأحرص على أن يكون أدائي الفني لائقاً ليس انطلاقاً من مقولة الفن للفن وإن كان هذا مهماً، بل أيضاً لغايات مهمة تتجلى بتعريف المتلقين بغايات هذا الفن الراقي، وكشف حيثيات بعض القضايا التي تهمهم ولا يمكنهم التعبير عنها، فليس الجميع شعراء، عندما يحكي الشاعر بألسنتهم يحثهم على تفهم الحالات المطروحة في القصيدة، أرى في الشعر رسالة تنويرية لها دورها، وهل هناك أهم من دور المثقف والشاعر أحد أهم المثقفين، أليس للثقافة أثر كبير في نهضة المجتمعات، كيف لا ونحن نمر بحرب جذورها كانت ثقافية قبل أن تتحول إلى الميدان.

> في لحظات التجلي أشعر أنني بحاجة ماسة لكتابة الشعر لأنه الوجه الأسمى له

• ما الأسلوب الذي تنحازين إليه في الكتابة الشعرية ولماذا؟

في بداياتي كتبت قصيدة العمود ثم وجدتني أميل للتفعيلة التي كتبتها لسنوات عديدة، ثم اطلعت على قصيدة النثر فعشقتها، كما كنت أحياناً أكتفي بومضة مكثفة تنطوي على دلالات قد لا تحملها قصيدة مطولة، بمعنى أني لست منحازة إلى نمط شعري معين بل إن طبيعة الموضوع هي التي تقودني إلى نمط القصيدة، وأؤمن أن القصيدة القادرة على ترك أثرها في المتلقي، هي التي تعتبر عملاً إبداعياً حقيقياً، وللمعادلة طرفان المبدع والمتلقي، والقصيدة هي روح التواصل بينهما بغض النظر عن نمطها الفني، وفي مراحل سابقة كتبت القصيدة المنبرية ثم هجرتها، ورحت أتوجه إلى القصيدة التي تحمل روحي بغض النظر عن شكلها، وغايتي أن أخاطب بها أرواح الآخرين، وأرى أن لهذا أثراً فيهم أكثر من ضجيج المنابر وتصفيق الجماهير.

• وفي ختام حوارها مع «الوطن» أهدتنا قصيدة بعنوان «لحن الشهيد» وتقول فيها:

أسمعت ندهات الأغاني في البطاح
والميجنا كيف ارتمت بتلالنا الخضراء مثخنة الجناح
وعلى انكسار الشمس طارت مهجة.. فتخضبت من عطرها
مقل الصباح
فاخشع إذاً يا صاحبي لدموع أمّ صارعت مهج الرياح
وتسامقت نحو السماء بدعوة فعسى ينام بصدرها نزف الجراح
وعسى الشهيد يبث ومض ثنائه مطراً وطهراً ترتوي منه الأقاح
يا صاحبي في أرضنا خبز وملح بالدماء معمد... وبرعشة الزيتون سر للإله على المدى لن يستباح.

هيلانة عطا الله في سطور

شاركت بالعديد من الأمسيات والمهرجانات واللقاءات، وحصلت على عدد كبير جداً من شهادات التقدير، منها ثلاثة من نقابة معلمي سورية، وشهادتا تقدير من منظمة الاتحاد النسائي في سورية سابقاً، وأخرى من محافظة دمشق عام ٢٠٠٥ لمناسبة دمشق عاصمة الثقافة العربية، وشهادات تقدير عديدة من مديريات الثقافة في درعا وريف دمشق ومدينة دمشق، وأخرى من ثقافة دمشق عام ٢٠١٩، كما حصلت على تكريم مع درع من مؤسسة حوزي هونري الإيرانية عام ٢٠١٧ ومن المؤتمر العام للأحزاب العربية عام ٢٠١٠ وآخرها كانت من فرع دمشق لاتحاد الكتاب العرب عام ٢٠١٩.

الفنّان التشكيلي بولس سركو: الشبه بين شكل المرأة وشكل الجرة يعود لطقوس أسطورية

| ثناء خضر السالم

يحضر الأبيض بنقائه وصفائه في لوحاته بطريقة تشدّ المتلقّي ولاسيّما حين يستخدمه في لوحات الأحصنة. مفردات متعدّدة نقرؤها في لوحاته (البحر – الجرار – أوغاريت– القوارب– الغروب)، والقاسم المشترك بين هذه المفردات جميعها هو المرأة التي تحضر بقوة، بكامل أنوثتها وخصبها. نجد لديه لوحات انطباعية، لكن سمة تجربته الفنية هي المراوحة بين أقصى الواقعية وأقصى التجريد، مع محاولاته الدائبة المزاوجة بينهما في العمل الفني، بغية تحقيق رؤيته الخاصة للفن التشكيلي. مع الفنان التشكيلي بولس سركو كان لي هذا الحوار:

• من خلال اطّلاعي على تجربتك الفنية عموماً لاحظت وجود عدة مدارس تشكيلية، الواقعية والانطباعية والسريالية والتجريدية، هل المسألة مسألة تدرج؟

خلال التجربة التشكيلية التي مررت بها كنت أجنح أحياناً إلى هذه المدرسة أو تلك، ولكنني في المرحلة الأخيرة اعتمدت على المزج بين مدارس مختلفة؛ لأن المهم بالنسبة لي هو أن تصل الرسالة التي يتضمنها العمل الفني إلى المتلقي بأبسط ما يمكن من الوسائل، وليس المهم نوع المدرسة ما دمتُ أستطيع معالجة هذا المزج بطريقة غير متكلفة ودون المساس بالقيم البصرية التي تتطلبها حساسية إخراج العمل، وكذلك حساسية تلقّيه، فالمُشاهد لا يشعر بالتناقض حين يتأمّل لوحتي التي يتضمّن تكوينها أكثر من مدرسة، فجمالياتها تشغل ذهنه وتطلق مخيلته معها، ويبحث فيها عن معاني تلك الومضات القادمة من الذاكرة الجمعية.

• تستند إلى الحضارة القديمة في أعمالك، كما في لوحة أوغاريت. ما الرسالة التي تريد إيصالها؟

الرسالة يمكن قراءتها في تلك اللوحة بالذات، فهي تختصر تجربة طويلة، هي عبارة عن تكوين بسيط عناصره: بوابة أوغاريت في الخلفية مع ملامح جرة تحتوي على كنز متطاير وهو حروف من الأبجدية الأوغاريتية، إذا حاول أحد ما ترجمتها فسيكتشف معاني كلمات عربية مثل الحب والسلام والعدالة، أما النورس الأبيض فيبدو كأنه ينشر هذه الرسالة في العالم، أما مسألة الاستناد إلى الحضارة القديمة فتلك قصة يجب عليّ الاعتراف بها؛ وذلك لأنني تقدمي من حيث تفكيري السياسي، ما يدفع للتساؤل عن تناقض صارخ بين توجّهين، هل بولس السياسي هو نفسه بولس التشكيلي؟ وهو سؤال محق ومهم.
في العام ١٩٩١ سقطت أنظمة الكتلة الشرقية وبدأت على الفور تحلّ على العالم ثقافة أحادية أميركية مهيمنة بلا منازع، ظاهرها العام الحريات والحقوق المدنية والفرد وباطنها رجعية مطلقة، إحياء لفكر ما قبل الأنوار، قيم تراثية دينية وتشكيك بالعلمانية وحرب شرسة عليها وعلى مجمل فكر الأنوار والتقدم، والفن لم يكن بعيداً عن هذا الانقلاب بل إنني لا أكشف سرا لو قلت إن الفن التشكيلي كان الأسبق في التأثر وإظهار علامات التغيير الجديد من خلال الخطاب الذي ساد عقد التسعينيات من القرن العشرين (حرية الفن والفنان) مقترناً بالعودة للفن الديني الإسلامي والمسيحي، ردده فنانونا بلا تدقيق، كنت مندهشا ومتسائلا على الدوام.

أدواراً ما في استنهاض الطائفية.

• من الذي كان يقمع التشكيل السوري؟

الواقع يقول إنه طوال زمن النهضة الجديدة للفن التشكيلي السوري منذ مطلع القرن العشرين لم تتدخل السياسة في توجهات هذا الفن وكان الفنان السوري حراً على الدوام ولكن التدقيق في التاريخ الأعمق للفن التشكيلي السوري يكشف لنا أن السلطات الدينية هي التي احتكرت الفن التشكيلي ومسخته وقلصت وجوده تقريباً إلى الصفر في الحياة الاجتماعية وبدا سجيناً هزيلاً على جدران المعابد لذلك كنت أنظر إلى الخطاب السائد حول حرية الفن المقترن بالعودة إلى الماضي بازدراء في وقت صار فيه هذا الخطاب جارفاً ووحيداً ومهيمناً، ولم أكن في وارد الصدام معه وأنا في بداية صعودي فنياً كان لا بد لي من مخرج من هذا المأزق الفكري لا أطير فيه خارج السرب ولا أتنازل فيه عن فكري السياسي في الوقت نفسه وكان خياري الذهاب لمهد الفن السوري وأعني فنون أوغاريت لاعتماد جمالياتها كلغة تشكيلية أطرح من خلالها مواضيع إنسانية تلائم تفكيري، فإذا كان لا بد من التركيز على هوية سورية في زمن الغزو الثقافي للعولمة في تقديري فإن هذا الخيار الإنساني كما أعتقد كان الأقل ضرراً بين خيارات رجعية قد تكون لعبت والتجريد، المدارس التي كأنما اختلطت جميعها في أعمالك ولكن من غير المفهوم اختلاط الموضوعات، فما علاقة الأحصنة أو الموسيقا بالعمق التراثي الأوغاريتي في أعمالك؟

سؤال مهم جداً، ولا بد من تعريف القارئ الكريم والمهتمين بقضايا التشكيل والنقاد أن البحث في التراث الفني الأوغاريتي لم يحصل بين ليلة وضحاها، لقد استغرقت العملية سنوات واستغرقت سنوات أخرى عملية إخراج ما اختزته من الفن الأوغاريتي في طابع معاصر من جهة، ويمثلني شخصياً من جهة أخرى، وفي إطار البحث والتجريب كنت أفتح على خيارات متعددة حتى وصلت إلى الصيغة التي تظهر فيها أعمالي اليوم، كل تجربة على صعيد الموضوعات وعلى صعيد التقنيات كانت خطوة على طريق الوصول للأسلوب الطاغي في أعمالي الأخيرة وقد استقرت على شاطئ البحر بعد أن امتلكت لغتها الخاصة، فاليوم الموضوعات أيضاً متعددة ولكن كلها عناصر ساحلية، صيادون، قوارب، نوارس، إلخ. مع أن الحرب على سورية فرضت نوعاً من التشويش على مشروعي وإمكانية استكماله لأنني بصراحة خَجِل من عدم قدرتي على التعبير فنياً عن الكارثة التي حلت ببلدنا الآن، ربما في لحظة ما تتدفق صور ما حصل، وتفرض ذاتها علي وجداني، اليوم أجد نفسي شبه معطل فنياً بسبب ضرورة استكمال المشروع بعد نضوجه، وبنفس الوقت ضرورة الوفاء فنياً أيضاً لوطن يُعتدى عليه منذ أكثر من ثماني سنوات سوريتنا الحبيبة.

• ما الذي يقدمه التجريد من رؤى وانطباعات؟

التجريد هو فن اختزال عناصر الواقع وتبسيطها وبناء علاقات ذهنية إبداعية لها وهو تجربة غنية جداً للفنان وخياله، ومع ذلك فالتجريد بالنسبة لشخص مثلي ليس هدفاً بحد ذاته بل هو مجرد تجربة لا بد من المرور بها في المسيرة الفنية، لكن عموماً على المتلقي ألا ينتظر تفسيراً للعلاقات القائمة داخل العمل التجريدي، فهو لا يروي قصة رمزية، ولا يتطلب حل عقدة ما إنما يمكن للمتلقي التمتع بجماليات ورؤى غير مألوفة لديه تكونت في الخيال الخصب للفنان ولهذا الأمر تأثيره الجيد على الفن بذاته وتأثيره السيئ على علاقة الفن بالمجتمع وذلك لأن نخبة فقط من الناس ترغب في التمتع بتلك الجماليات الغريبة فضلاً عن الطبيعة الخاصة بعالم التجريد التي تتعارض مع مفهوم الرسالة الفنية.

• أجريت معارض داخل سورية وخارجها، بمن تثق أكثر بالجمهور العربي أم الغربي؟

المسألة لا تتعلّق بالثقة بقدر ما تتعلّق بالتقييم الموضوعي لعلاقة كلا الجمهورين بالفن التشكيلي، ووفق ذلك من الطبيعي مع تطوّر تاريخي طويل للفن التشكيلي في الغرب أن يكون الجمهور الغربي ملتصقاً بهذا الجزء من هويته الحضارية ومن الطبيعي في المقابل ومع قطع تاريخي طويل أن يكون الجمهور العربي أقل تجاوباً مع الفن التشكيلي، ولكنّني أنظر بإيجابية في تقييم المسألة نسبياً، إذ إن قرناً ونيّفاً من عمر التصوير بالطريقة المعروفة حالياً قد خلق جمهوراً ذوّاقاً للفن التشكيلي في بلدنا، مع كل ما يحمله هذا الفن المعاصر من اغتراب مفاهيمي.

• هل أثر عملك في مجلس المحافظة على إبداعك أم أضاف له بحكم معايشتك هموم النّاس؟

الحقيقة أن الحرب ومعاناتها والحصار المفروض على البلد هي التي أثّرت في كميّة الإنتاج الفنّي وليس الإبداع، أمّا بالنسبة لعملي في مجلس المحافظة فهو خطوة جديدة لخدمة الشأن العام، ولكنّني حتى قبل وجودي في المجلس كنت مهتمّاً بهذا الشأن، وعلى الرغم من أنني معروف في الوسط كفنّان تشكيلي ولكن يعدّني البعض أكثر حضوراً في الكتابة من الفن التشكيلي، فأنا أحد كتّاب المقال السياسي والفكري في مجلّة النّور السوريّة التقدّميّة، وقد صدر لي حتى الآن كتابان سياسيان عن دار ديار للنشر في تونس حول العدوان على سورية، لذلك فإن نشاطي المتنوّع لا يتعارض مع بعضه عموماً، إنني معتاد على هذا التنوّع.

• هل يرتبط الفن التشكيلي كالأدب بلحظات إبداعية أم هو تحضير مسبق؟

لحظة الدفق الإبداعي خاصيّة تشمل كل المجالات، الفن بأنواعه والأدب أيضاً. ولكن يمكن الحديث عن فوارق بين المذاهب الفنيّة بخصوص طريقة نقل اللحظة الإبداعيّة بصدق وعفوية ودون تدخّل العقل في عملية تهذيب للعفوية المطلقة. وهناك من يعترض على ذلك وأنا منهم، فالعفوية مهمة جداً وكذلك الصدق في نقل اللحظة الإبداعية، ولكن فقط على المسودة الأولى التي يليها تدخّل العقل في عمليّة ترتيب وإخراج ملائم للبصر، تحكمه قواعد فنيّة أعتقد أنها لا تزول، فهي نتيجة لتراكم المعرفة الإنسانية، وهذا ما أفعله بالضبط، إذ لا أقوم بإنجاز عمل دون تحضير مسبق فكما هو الصدق مطلوب في الفن كذلك مطلوب طرح هذا الصدق بطريقة سلسة مُحبّبة تتقبّلها العين ولا تتقزّز منها.

• ماذا تقول عن: الحرب، الحياة، اللوحة البيضاء، الفن التشكيلي في سورية اليوم؟

الحرب هي أخطر ما يهدّد حياة الناس وأمنهم واستقرارهم، وهي نتاج الجشع الرأسمالي وحاجة عصابة من البنك الدولي للهيمنة على ثروات العالم.
الحياة: الحياة والحرب نقيضان، الحرب موت وتدمير والحياة ولادة وبناء، الحياة متعة العيش وهي حق للإنسان ينصّ عليه القانون الدولي.
اللوحة البيضاء: تشبه الموت قبل انبعاث الخطوط واللون لتخلق حياة تضج بالحركة.
الفن التشكيلي في سوريّة اليوم: بعد تطوّرات مهمة وخطوات واثقة للفن التشكيلي السوري عبر مسيرة ما يزيد على قرن من الزمن أعتقد أنّنا بحاجة اليوم لمراجعة نقدية شاملة للمثل والقيم الجمالية، فهناك تكرار مملّ من جهة وهناك نوع من الانبهار بالتوجهات الغربية، وقد آن الأوان لنهضة تشكيليّة سوريّة غير عبثيّة تنطلق من تراث سوري غير منغلق على ذاته وغير مرض يمكن لعالم اليوم احترامه على أساس سيادي وهناك ملامح فقط نلاحظها في بعض التجارب لمثل هكذا فن تشكيلي، لذلك أتمنّى على نقاد الفن التشكيلي والمهتمين به السعي لوضع الإطار النظري لهذا التوجه الوحيد الكفيل بدفع الفن التشكيلي السوري لقفزة جديدة.